الحب والسحر

للأستاذ نجيب محفوظ

انتهى من فرش شقته - أو حجرته إن أردت الدقة - لأنها كانت مكونة من حجرة متوسطة الحجم وردهة صغيرة ، وكان الأثاث فى غاية البساطة كذلك لا يعدو الفراش الخشبى الصغير وخواناً يستعمل مائدة للطعام ومكتباً للمذاكرة وكرسياً وصندوقاً لحفظ الملابس والكتب ومسطرة مدرسة الصنائع المعروفة بطولها . وهذه الشقة هى الطابق الأول لمنزل صغير مكون من طابقين متماثلين بحارة دعبس بالوايلية . هداه إليه أهل الخير ، فوجده صالحاً لتلميذ مثله بمدرسة الصنائع ومن أسرة ريفية متوسطة الحال بقليوب ، واكترى الشقة بخمسين قرشاً بعد أن رفضت صاحبة البيت تخفيض مليم من أجرتها ...

واستقبل الحياة فى البيت الجديد بنفس راضية ، وعلم أن صاحبته تدعى « أم فردوس » ، وأنها أرملة أسطى عربجى كارو ولكنها تعيش الآن من أجرة شقته وما تربحه من بيع مواد السمنة : كالفتة والمفات وبعض التركيبات الأخرى ؛ ثم هدايا الأسر التى تعمل بها : « كبلانة » أو « خاطبة » . وكانت امرأة قصيرة بدينة قوية البنية ، تصبغ شعرها بالحناء ، وتملأ ساعديها بالأساور الذهبية ؛ وكانت قسماتها مقبولة ، ولكن صوتها خشن جهورى ، السب أهون ما يقذف به مما جعلها مرهوبة الجانب فى الحى كله . وتساءل منذ اليوم الأول لإقامته فى البيت : ترى هل لأم فردوس بنت تدعى فردوس حقاً ؟ ... وأين هى ؟ هل تقيم معها فى البيت أم أنها فى بيت زوجها ؟ ... وربما كان الباعث على السؤال حب الاستطلاع ليس إلا ، وعلى أية حال جاءه الجواب سريعاً ، ففى صباح أحد الأيام ، وكان يهم بمغادرة شقته إلى المدرسة سمع وقع أقدام خفيفة فصوب بصره إلى أعلى السلم فرأى فتاة فى السادسة عشرة مرتدية مريلة المدرسة الزرقاء تهبط فى تؤدة حاملة حقيبتها ، فانتظر حيث هو موسعاً لها الطريق ، وقد التقى بصره ببصرها وهى تعاينه بعين بعلوها الارتباك ، ولما حاذته خال أنه سمعها تحييه بصوت خافت قائلة « صباح الخير » فقال لها بلهجته الريفية الفجة « صباح الخير » ... ثم تبعها على مهل حتى خلصا إلى الطريق ، ولم تلتفت الفتاة إلى الوراء ، ووضعت حقيبتها على خاصرتها وأحاطتها بذراعها ومضت ... ترى هل تكون الفتاة فردوس بنت أم فردوس ؟ ... رجح ذلك مستدلاً بتحيتها له ، وعلى أية حال كانت الفتاة خمرية اللون ، سوداء العينين والشعر ، ناهدة الثديين ... فبدت لعينيه الريفيتين آية من الحسن ، وكان يتمثل فردوس من قبل كأمها : غليظة ، تسعى فى الأسواق ملتفة بالملاءة اللف ، فإذا به يجدها تلميذة لطيفة تسر الناظرين ... فجرت ابتسامة على شفتيه الغليظتين ، وقال قائلاً بلهجته الريفية : « وى وى يابوى » ... وقد له أن يعيش فى بيت واحد مع هذه الفتاة الجميلة ، ولكنه كان قليلاً ما يسعد برؤيتها بخلاف أمها التى كانت تقوم بتنظيف شقته ، وتجالسه فى أوقات الفراغ ، وتحدثه - بمناسبة وبغير مناسبة - عن شئون مختلفة وعن أناس كثيرين من الجيران ، وقد ساق الحديث يوماً إلى ناحيته فسألته عن أسرته ومستقبله وصارحها الشاب بأنه من أسرة سيدهم ! ... وإنه يملك فدانين وعدداً من القراريط وجاموسة ، وأنه التحق بمدرسة الصنايع بعد أن قضى ثلاث سنوات بالمدرسة الثانوية وقال لها فى شىء من المباهاة أنه سيكون يوماً ما مهندساً وأصغت المرأة إليه باهتمام وانتباه وكانت تتمثل الفدانين والجاموسة والمهندس الشاب وتختلس منه نظرات عميقة تدل على الحذر والدهاء ... ثم دعت له دعاء طيباً بصوتها الأجش ...

وسارت الحياة على وتيرة واحدة ولم يكن يغير من رتابتها إلا سفره كل أول خميس من الشهر إلى قليوب حيث يبيت ليلته ويعود مساء الجمعة حاملاً معه بيضاً وفطيراً وزبدة يهدى إلى أم فردوس منها نصيباً معلوماً ...

وفى يوم من الأيام وكانت المرأة تجالسه خاطبته برجاء قائلة :

— والنبى ياسى حماد تفهم فردوس الحساب لأنها ضعيفة فيه

وابتهج الشاب بالدعوة أيما ابتهاج . ولم يكن الأمر سهلاً كما يبدو لأنه كان نفسه ضعيفاً فى الحساب وكان بينه وبينه ثأر قديم منذ اليوم الذى اضطره فيه إلى اليأس من الاستمرار فى المدرسة الثانوية وإجباره على اختيار مدرسة الصنائع بدل المدرسة الحربية التى كان على استعداد لأن يجود فى سبيل الالتحاق بها

يبيع الفدانين والجاموسة . ولكنه قبل الدعوة دون تردد وصعد إلى شقة أم فردوس ، ووجد الفتاة وكأنها فى انتظاره وكانت ترتدى فستاناً أنيقاً ، وترسل شعرها الأسود فى ضفيرة طويلة جاوزت ردفيها . فقامت لتحيته وجلسا تفصل بينهما مائدة وضعت عليها كراسة الحساب ، وقالت لها أمها : إن « حماد افندى قبل أن يدرس لها الحساب » وجلست معهما برهة ثم خرجت إلى الردهة لأعمالها التى لا تنتهى ، وكان الدرس شاقاً على المعلم والتلميذة على السواء ، ولكنه لم يرض بالهزيمة وإفلات الفرصة السعيدة من بين يديه فشرح لها الدرس على قدر فهمه . وكان إذا غلبه الارتباك نظر إليها وسألها قائلاً : « فاهمة ؟ » فتهز رأسها بالإيجاب سواء أكانت فاهمة أم غير فاهمة . ووجد حامد فى هذه الدروس فرصة جميلة للاجتماع بفردوس ، وكان يجذبه إليها ما يجذب فتى مثله فى فورة الشباب إلى فتاة فى نضوجها وحسنها انطوى عليهما بيت واحد ، وربما كانا معاً يكابدان هذا الشعور الطبيعى ولكنهما لم يتقدما فى علاقتهما عن أول يوم التقيا فيه لأن الشاب كان ريفياً « خاماً » وكان يقنع بأن يقول لها صباح الخير أومساء الخير وهو يحدجها بنظرة ذات معنى كأنها تتوسل إليها أن تفهم ، أو أن يضغط على يدها إذا مدتها إليه بالسلام . وكان كثير الحذر فى التعبير عن شعوره خشية أن تتنبه إليهما أم فردوس لأنه كان يتوهم أنها لم تتنبه إليهما بعد ...

واطردت الأيام وهو جد سعيد بحياته ، حتى كان صباح جمعة ، وكان من عادته أن يقضى صباح الجمعة خارج البيت إلى ما بعد الصلاة ؛ وكان يقطع حارة دسوق فى طريقه إلى شارع الملك فالتقى بأم بخاطرها الغسالة وهى ملتفة فى ملاءتها القذرة كشرارة الفحم ، وكانت تغسل له ثيابه ثم انقطعت على أثر شجار قام بينها وبين أم فردوس تبودل فيه القذف والسب وشد الشعر والبصق وحركات أخرى غاية فى الزراية ، فأقبلت المرأة عليه وحيته وقالت :

— ياسى حماد أنا أرغب فى مقابلتك منذ زمن طويل فالحمد لله الذى أراد بك كل خير ... تعال أحدثك حديثاً يهمك ...

وانتحت به مكاناً خالياً من الحارة ثم استدركت تقول :

— أنت شاب طيب القلب لا تدرى من أمور الدنيا شيئاً فاحذر هذه المرأة ... أم فردوس داهية شريرة تجد منذ زمن طويل فى الإيقاع بك ...

فبوغت الشاب بهذا القول وأخذه العجب وسألها فى ارتباك ظاهر : « أى إيقاع بى تعنين ! »

فقالت المرأة وهى تخافت من صوتها :

— إبنتها ؟ ... ألا تفهم ؟ ... إبنة البريمجى ... فردوس التى تسير فى الطريق عارضة ردفيها وساقيها لكل من رأى ، فلا هى من مقامك ولا من مقام أسرتك وأنت الحسيب النسيب مالك الفدادين ... فاحذر ثم احذر، إنها تحتال عليك مستعينة بالشياطين ..

وسكتت المرأة ريثما تستريح وجعلت تلحظ الشاب وتقرأ الدهشة المرتسمة على وجهه بارتياح ثم أدنت رأسها من رأسه غير مشفقة عليه من رائحة رأسها ونكهة فمها واستطردت تقول :

— لقد أخذت منديلك خفية وأعطته الشيخة زهية وأعطت قميصك للشيخ لبيب وأنت لا تدرى شيئاً والسحر فى فعله ، والبخور فى عمله ، وأرواح الشياطين تطوف ليل نهار

فتبدى الخوف على وجه الشاب وعبس وجهه . . . ولم يكن خالى الذهن من هذه الأمور ، ولا كان ممن يستهينون بها فساوره القلق وتساءل متجاهلاً عواطفه ، مظهراً عدم اكتراث

— وما عسى أن يعنى هذا ؟

فضربت المرأة صدرها بيدها وقالت :

— هذا يعنى كل شىء يا مسكين ؛ هذا الذى أوقع المرحوم الأسطى شلبى من قبل . واعلم أنها دخلت فى الصعيق ، وحصلت على حجاب رهيب دسته تحت حشية سريرك ، وحفظت ابنتها كلاماً سحرياً مخيفاً تتلوه صباح كل جمعة على فراشك وهى تثابر على ذلك أسبوعاً بعد أسبوع ، فأفسد عليها عملها الشيطانى ، وانج بنفسك ... والآن وقد حذرتك ، فإنى تاركتك لحكمتك والله يلهمك الصواب ...

وسارت المرأة فى سبيلها ، ولبث هو فى مكانه لا يريم عنه متفكراً قلقاً يعجب لتلك الأمور الجليلة التى تدور من حوله وهو عنها غافل ... رباه ! أسحر وبخور وشياطين ؟ ! ... أكل هذا ليتزوج من فردوس ؟ وكان بغير شك قلقاً خائفاً ولكنه أحس لذة خفية وفخاراً ، ثم تساءل : هل يستمر فى طريقه أم يعود إلى البيت ليرى بنفسه ما يحدث فى غرفته ؟ وولى وجهه شطر حارة دعبس دون تردد فبلغ البيت بعد زمن قصير وكانت النوافذ مغلقة والباب مواربا كعادته فدخل بهدوء لا يحدث صوتاً ورأى باب شقته مغلقاً ، ترى هل هو مغلق بالمفتاح ؟ وهل فردوس حقاً بالداخل ؟ ثم صعد بصره إلى أعلى السلم وأدار الأكرة بخفة ودفع الباب

فى حذر فانفتح ، فخفق قلبه وقال لنفسه إن أم فردوس لا تترك الباب هكذا إذا لم يكن أحد بالداخل ، ثم دخل ورد الباب بهدوء ، وهنا اقتحمت أنفه رائحة بخور جميلة مخدرة فانتفض رعباً وتمتم بصوت غير مسموع قائلاً : « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم » ولكن شغفه تغلب على خوفه فتقدم بخفة كأنه يسير على حبل فى ملعب ووضع أذنه على باب الحجرة فلم يسمع حركة ولا نأمة فانحنى حتى استطاع أن ينظر إلى الداخل من خصاص الباب فرأى دخان البخور تتصاعد سحائبه فى هدوء إلى سماء الغرفة ، واستطاع أن يرى سريره بوضوح ... رباه ... لم يكن خالياً ... كانت فردوس تتربع عليه فى ثوب أبيض ناصع البياض متلفعة بخمار أبيض كذلك كأنها على وشك صلاة ، ورآها تضع على كفها رسالة مطوية تستغرق فى النظر إليها وتحرك شفتيها حركة منظمة كأنها تتلو آية ؛ ولبث ينظر إليها فى سكون ودهشة ، وكان يجد قلقاً غريباً ، ولكنه لم يشعر بغضب أو سخط بل جعل يراقبها أخيراً فى شغف ثم رآها تثنى حافة المرتبة وتضع ما بين يديها تحتها ، ثم رآها تتمدد على ظهرها فى هدوء وهى تظن أنها بمأمن من الرقباء وتسحب الوسادة وتضعها عليها بالطول ، ثم احتضنتها بيديها وكأنما راحت فى سبات عميق ، وراقبها بعينين دهشتين وراح يتساءل أكل هذا حقاً من أجلى أنا ؟ ! ... أكل هذا لكى تتزوج منى أنا ... واطمأن إلى المنظر الغريب ووجد فى مراقبته لذة لا تعادلها لذة ؛ وأحس تخديراً ود لو لم يصح منه أبداً . وتدفق الحنان من حناياه فتمنى لو يحتويها فى تلك اللحظة بين يديه ...

ثم رآها تزيح الوسادة عنها وتعيدها إلى مكانها وتعتدل جالسة ثم تهبط إلى الأرض وتميل إلى المبخرة لترفعها فتوقع أن تمضى بعد ذلك إلى الباب وانتبه إلى حاله ، فسارع إلى الباب وفتحه وأغلقه بقوة متعمداً أن يحدث صوتاً مسموعاً واتجه نحو غرفته وهو يصفر صفيراً عالياً فانفتح باب غرفته وبرزت الفتاة وقد علا وجهها شحوب وارتباك وقالت باضطراب :

— عدت مبكراً ... أنا كنت أنظم حجرتك وأبخر الشقة

واتجهت نحو الباب مهرولة فاعترض سبيلها ، وكانت عواطفه المضطربة تشجعه على الاستهانة فقال برقة :

— شكراً ، لقد عدت لأنى أحسست بتعب ، وإنى لآسف على إزعاجى لك ... استريحى ، ولكنها قالت بسرعة ولم تكن أفاقت بعد من ارتباكها

— دعنى أخرج وإلا استبطأتنى أمى

فقال لها برجاء وهو يشير إلى الكرسى :

— استريحى قليلاً ... أرجو أن تمكثى معى هنيهة فإن لدى ما أقوله لك ...

وكانت عواطفه ثائرة فدفعها برقة نحو الكرسى حتى جلست كارهة ، ثم قال لها بصوت متهدج :

— فردوس ! هذه فرصة سعيدة لأنفرد بك وأقول لك ...

وأعياه القول فسكت ؛ ولكنه كان يشعر بأنه ينبغى أن يقول شيئاً وإلا لم يجد عذراً يتنحله لإبقائها . فقال بصوته المضطرب :

— أنت جميلة فى الثوب الأبيض ... أعنى أنك فيه أجمل منك فى أى ثوب آخر ... الواقع أنك جميلة دائماً وفى أى ثوب كان ...

فاشتد الارتباك بالفتاة وتضرج وجهها بالاحمرار فازدادت فتنة وازداد افتتاناً . فلم يملك أن قال لها :

— فردوس ... أنا ... أنا أحبك ... وقد أبقيتك هنا لأقول لك إنى ... أريد أن أتزوج منك

لم تستطع الفتاة البقاء فقامت واقفة واتجهت نحو الباب ولكنه اعترض سبيلها مرة أخرى وقال لها :

— هل أنت غاضبة ؟ ... صدقينى يا فردوس سأتزوج منك

ونظر إلى وجهها بعين فاحصة فلم ير غضباً ولكنه أحس ارتباكها وتعثرها بالخجل فأوسع لها ، ولما حاذته هوى بفمه فقبل خدها ، ولم تقل له شيئاً ، وسارت حتى غيبها الباب ، ودخل الشاب إلى حجرته ، وجلس على حافة سريره كعادته ؛ ثم دس يده تحت الحشية حتى عثرت بالحجاب ، فوضعه على كفه يديم إليه النظر فى سكون وتهيب ، ولم يجسر على فك رباطه فأعاده إلى مكانه ، وتفكر ملياً ثم قال وهو يبتسم : « من يستطيع أن يقول بعد اليوم أن السحر خرافة ؟ ! »

أما فردوس فصعدت السلم مسرعة تقفز كل درجتين معاً ، ولم تكن أمها فى الشقة ، فجرت إلى الغرفة يكاد يصرعها الفرح وجعلت تروح وتجىء وهى تقول باضطراب : « يا بركتك يا شيخة زهية ... يا بركتك يا شيخة زهية ... ! »

نجيب محفوظ

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)